

## ما بعد الموت

وقفنا على حديث في هذا الموضوع مع قس فاضل رأيناها غاية في الاجادة  
فانقطعتنا منه ما يأتي شارحين بعض الاعلام المذكورة فيه  
قال الكاتب رأيت مركبة محملة حملاً ثقيلاً انقلبت فوق رجل فحسبت انها  
قضت عليه . ولما رُفعت عنه وُجد حياً سليماً لأنه اتفق ان كان الى جانبه حجر  
كبير استندت المركبة عليه فبقيت مرتفعة عن الرجل نحو اصبع . فقلت له اخبرني  
بماذا كنت تفكر حينما رأيت المركبة فوقك ويحتمل في كل لحظة ان ينكسر هذا  
الحجر او يزيع من مكانه فتخطف انفاسك . هل خفت وهل خطر لك انك ستقف  
بعد قليل امام الله وتُسأل عن اعمالك

فقال كلاً لم يخطر ببالي شيء من ذلك ولا انا ممن تحظر بالهم هذه المواضيع  
بل كنت اقول في نفسي لا بد من ان تصل المركبة الي بعد قليل واموت ميتة  
كلب ولا حيلة في اليد

ورأيت مرة اخرى كهلاً في احد المستشفيات مصاباً بذات الرئة والطبيب  
والمرضة واقفان الى جانب سريره وهما ينتظران من لحظة الى اخرى ان يلفظ  
النفس الاخير لكن الخطر زال وشفي . فكلمته في هذا الموضوع وقلت له ان  
الطبيب قطع الرجاء منك واظنك عرفت ذلك فكيف شمرت وانت على حافة الابدية .  
فقال لم اشمر الا بانني كنت في اشد التعب وانى ان انام واستريح . فقلت له اكان  
الموت والحياة سيئين عندك فقال كنت افضل الموت لينقذني من التعب

فاتيت القس فزودك وقصصت عليه هاتين القصتين وما سمعته من الرجلين  
وقلت له ان ذلك مخالف لما اسمعه احياناً في الوعظ من اهتمام المختصرين بما  
وراء الموت

فتيسم وقال ان الناس فلما يهتمون بما وراء الموت وهم في هذه الحالة والغالب  
انهم يقابلونه كمن تعب في السفر وهو في حاجة الى الراحة . فالرجل الذي يسير  
سيراً شاقاً ثم يصل الى فندق لا يهتم بزينة الفندق بل بمكان يجلس فيه ويستريح .  
واذا اردت ان ترى رجلاً يهتم بما وراء الموت فلا تفتش عنه بين الضمقاء الذي

انهمم المرض بل بين الاقوياء الذين يعملون الاعمال العظيمة فان الانسان يعمل كأنه خالد ويود الخلود حينما يكون في معظم قوته وراحته لا حينما يكون ضعيفاً تبعاً. قال تيندل (١) «لقد رأيت مدى ستمين كثيرة أن هذا المذهب (أي المذهب المادي) لا يتولاني حينما أكون على أتم النشاط وجللاء الفكر لأنه يضمحل ويتلاشى أمام الافكار السليمة ولا يحل للفرز الذي نحن فيه»

وفراش الموت ليس بالحك الذي يظهر عنده الاعتقاد بالخلود وإنما الهك في البيت والمكتب والمعمل حيث يتفانى الناس في طلب الاعراض وهم يحسبون أنها خالدة. اناس مثل هؤلاء يقفون في ميدان الحياة ويتساءلون هل هذا المترك حرب حقيقية او لعب ولهو وهل وراءه شيء دائم او هو ظل زائل

اليك مثليين وقمالي . اتاني ذات يوم شاب جالس في هذا الكرسي الذي انت جالس فيه وكان في حيرة شديدة لأنه كان وانما أنه اذا عمل عملاً لا يسلم به ضميره ربح ربحاً كبيراً . فقبض على ذراعي الكرسي بيديه وقال «لو كنت اعلم حق العلم ان لا حياة بعد الموت لمعلت هذا العمل وخرجت بالريح الجزيل . . ومفاد ذلك ان اخلاقة كانت تنهأ عن العمل الذي اثار اليه ولو داخله أقل ريب في أنه خالد لما تأخر لحظة عن عمله . خلق مثل هذا لا يكون في نفس غير معدة للخلود كما ان حجارة اللس لا ترصع بها ثياب الورق

والمثل الثاني رجل من ارباب الاعمال الكبيرة في هذه المدينة دفنت ابنته في النهار واتاني في المساء وقال لي اليك عن عبارات التمزية المألوفة فانها لا تمزي ولكن ان كنت تعرف شيئاً حقيقياً عما وراء الموت فيالله عليك اخبرني به لانني في اشد الحاجة اليه الآن

فهذان الرجلان من نوع الرجال الذين يهتمون بالخلود ويشتاقون اليه وهم في معترك الحياة لا لان قواهم تهكت فيودون انخلاص منها بل لان نفوسهم الملوثة قوة تطمح الى معرفة ما وراء القبر وتدفعهم الى ذلك

فقلت له ما كان جوابك لهذا الرجل فصمت هنيهة ثم قال انتذكر الجدال الذي جرى بين نيوليون وجماعة من العلماء فانه اصغى اليهم ثم نظر الى السماء وقال لهم

(١) تيندل Tyndall عالم طبيعي من أكبر الباحثين في علم الطبيعيات تولى سنة ١٨٩٢

« ان كل ما قتموه حسن ولكن قولوا لي من صنع كل هذه النجوم » . ونحن يجب ان يتبدى بحثنا عن الخلود بسؤال مثل هذا . لا بد من قوة خلقت هذا العالم فهل يمثل ان هذه القوة الخالقة غير عاقلة وغير مدركة . كيفما وجه العالم آتاه المصرية من انواع الكرسكوب والتلكوب رأى بها أدلة قاطعة على وجود الانتظام في الكائنات حتى لقد قال هكسلي<sup>(٢)</sup> وهو من اللادريين<sup>(٣)</sup> « اني اسلم بان نظام الكون يدل على عقل منظمة وان هذا التنظيم قد ساد الكون في كل المصور . ولا اكتفي بالتسليم بهذين الامرين بل اراني اني ميلاً الى القول بأنهما من اهم الحقائق » فالكون شيء حقيقي منتظم خاضع لقوانين يجري بموجبها . وعناصر امد نجم متماثل عناصر اقرب نجم ومثل عناصر الشمس والارض . ونواميس حركات الكون مسروفة جارية على سنن واحد حتى لقد عرف بعض العلماء مما رآه من التأثير في حركات بعض السيارات ان وراءها سياراً<sup>(٤)</sup> غير منظور يفعل بها وعرف مقداره وموقفه من تأثيره فيها قبلما رآه احد فوجد في المكان الذي عينه فوجد فيه

وعليه فالعالم منتظم انتظاماً يدل على ان عقلا سامياً منظمة . وحركاته جارية حسب قوانين ثابتة لا مجازفة فيها . « قال تشارلس دارون<sup>(٥)</sup> اننا اذا التفتنا الى العالم كله ابي العقل ان يسلم بأنه وجد صدفةً »

اذا القيت حروف الطبع من غير ترتيب حتى يجتمع بعضها مع بعض كيفما اتفق فلا يمكن ان يطبع عنها عبارات مقروءة ذات معنى . ولا ترتب ترتيباً تطبع عنه جمل ذات معنى الا اذا رتبها انسان عاقل . فوجود المعنى في ترتيبها يدل على وجود العقل في مرتبها . وقد بحث رجال العلم في الكون فرأوا ان ليس فيه شيء

(٢) هكسلي Huxley عالم طبيعي اشهر من ان يوصف وهو اكبر نصير لادون تمول سنة ١٨٩٥

(٣) اللا ادريه ترجمة حرية لكلمة agnosticism التي وضعها الاستاذ هكسلي سنة ١٨٦٩ للدلالة على مذهب الفلاسفة الذين يقولون ان ما لا نعرف وجوده بطريقة طيبة لا يمتنع لنا ان نتبته ولا ان نفيه

(٤) هو اليار بنون الذي اثبت وجوده جون ادمس الانكليزي ولغزبه الفلكي الفرنسي في وقت واحد تقريباً قبل ان يراه احد

(٥) دارون Charles Darwin اشهر من ان يذكر وهو صاحب المذهب النسوبيه اي تسلسل انواع الاحياء بعضها من بعض بالاسباب الطبيعية كتنازع البقاء وبقاء الاصح

خالٍ من المعنى فالذي رتب ان يكون هذا الترتيب كائن عاقل. وعليه فمراء هذا السكون المادي كائن عاقل كونه ونظمه

واذا بحثنا في طبائع الكائنات رأينا انها تتدرج من البسيط الى المركب ومن الادي الى الاعلى. من غبار تتألف منه النجوم الى الارض الكثيرة التركيب. ومن الجباد الى النبات والحيوان ومن ادنى طوائف الحيوان الى الانسان العاقل ارقاها. فالكون متجه في نظامه الارتقائي الى تكوين العقل او النفس فاذا كان العقل او النفس هو الغرض الاسمي الذي ترتق اليه المخلوقات فهل يعقل ان الخالق يصل الى هذه الدرجة السامية في ترقية مخلوقاته ومتى وصل اليها بلاشياء. ايمقل ان الجهاد الذي جاهدته المخلوقات مدى الملايين الكثيرة من السنين يذهب هباءً مستورا كان خالقها يلهو بها ومتى وصلت الى اعظم غاية يمكن الوصول اليها في هذه الدنيا يطرحها من يده كانهما من سقط التاع. فكّر دارون في ذلك فقال « اي عاقل يستطيع ان يسلّم بان الانسان وكل الحيوانات التي فيها شيء من الشعور معرضة للملاشاة بمد ان ارتقت هذا الارتقاء الطبيعي المستمر »

يقال ان في بلاد الهند طائفة من الفقراء<sup>(٦)</sup> يجلس الواحد منهم امام بركة من الماء والى جانبه مساحيق ناعمة من الغبار اللؤلؤ فيري بعضاً منه على وجه الماء ويتفنن في رسمه حتى ترسم منه صور اشخاص ثم تعبث الريح بالماء فتزول الصور منه. فهل يعقل ان الخالق يجري هذا المجري في عمله يأخذ حفنة من التراب ويصنع منها مشاهير الرجال ثم يلاشيهم. من يستطيع ان يتصور إمكان ذلك؟ من يستطيع ان ينسب الى الخالق عملاً يجعل هو نفسه عنه؟ وكما قوي العقل وزادت قوة الاستدلال فيه نفر من القول بثلاثي النفوس فاذا سلنا بما يقوله العلم وهو ان نظام الكون يدل على وجود العقل في تنظيمه اضطررنا ان نعلم بوجود الخالق المنظم. واذا سلنا بوجوده تعذر علينا ان نمتقد بفتاء اسمي مخلوقاته اي ذاتية الانسان او عقل الانسان

قلقت ولكننا نرى العقل يصف رويداً رويداً وثلاثي امام اعيننا فالشهير امرسن<sup>(٧)</sup> اعتراف الخرف قبل موته حتى نسي اسمه وجعل يضحك ويلتج كالطفل

(٦) الفقراء طائفة من الدراويش في بلاد الهند

(٧) امرسن Emerson ادب اميركي مشهور بشعره وشره وآرائه الفلسفية تولى ١٨٩٢

بل كلابه وكل الذين كانوا حولهُ رأوا عينيه تظلمان رويداً رويداً كما تظلم كوى بيت هجره سكانهُ . لو مات الانسان وهو في عنقه وان قوته لكان الاعتقاد بخلود ذاته اسهل تصديقاً ولكننا رى عقول الشيوخ تموت قبل اجسادهم

فقال ان الجسد والنقل عورتان معاً واعني بالعقل هنا آلة اي الدماغ ولكن هل الانسان جسده ودماغه . أو ليس الجسد والدماغ آلتين للنفس فتكلاًن كما تكلم كل الآلات . هذه مسألة قديمة جرى البحث فيها في سجن سقراط (أ) وهو ينتظر شرب كأس السم الذي حكم عليه ان يشجعه فقد شبه بعض تلاميذه الانسان بعود ( الآلة الموسيقية ) وحياته العقلية والادبية بالانغام الصادرة من تقراوتاره وعليه فالنغم يزول بزوال العود . فقال سقراط ان الانسان ليس بالعود ولا بالنغم بل هو العواد الذي ينقر اوتار العود فهو محتاج الى العود واوتارهم لاصدار الانغام ولكن لا يتمدح عليه ان يترك هذا العود وينقر على عود آخر . والذي نشاهده في الشيخوخة هو ذنو العود من الفناء لا ذنو العواد منه

اذا سار الانسان في اتوموبيل مقفل كواه من الزجاج توقفت رؤيته الطريق وما حوله على نظافة الزجاج فاذا غطاه الفبار او الطين تمددت عليه الرؤية ولكن لا يستدل من ذلك على ان الانسان لوح من زجاج ولا على انه يمجز عن الخروج من هذا الاتوموبيل ورؤية ما حوله

والصعوبة التي تراها في الاعتقاد بان الصدفة اوجدت الكون تراها في الاعتقاد بان ادمنتنا هي التي توجد ما يفيض من نفوسنا . الدماغ مؤلف من خلايا صغيرة والياف دقيقة فهل يشمل ان هذه الخلايا وهذه الالياف هي التي انشأت روايات شكسبير ونظمت اغاني بيتوفن . وكيف تتمكن كل خلية من الاشتراك مع غيرها من الخلايا وتنظيم اعمالها معها حتى يصدر من مجموعها ما يصدر من مبدعات العقول

فذواتنا ليست اجسامنا ولا عقولنا . وما اجسامنا وعقولنا سوى آلات لها او هي صقالة تقام ليبنى بها بناء عظيم ومتى تم البناء ازيلت وبقي البناء ولتأمل ان يقول اني لا استطيع ان اتصور الانسان من غير جسم فاجيب

(أ) سقراط الفيلسوف اليوناني المشهور الترقى سنة ٣٩٩ قبل المسيح

اننا اذا تفينا من الوجود كل ما لا نستطيع تصوره لم نستطع ان نجاري العلم العظيم . فان رجال العلم يقولون ان في رأس الدبوس عالمًا كبيراً فيه ملايين من الجواهر وهي تتحرك في مداراتها كالسكواكب في افلاكها . وقد اثبت بعضهم ان الانسان لا يستطيع ان يمد الجواهر التي في رأس الدبوس في اقل من مائتين وخمسين الف سنة . فهذا شيء يفوق تصوري ولكنني لا ادعي خطأ العلماء فيه لانني لا استطيع تصوره . وهذا شأننا في الحياة بعد الموت فان سموية صورها لا تفتني وجودها

ان اكبر الفلاسفة لم يكن يستطيع وهو جنين في بطن امه ان يفهم احوال الحياة التي يحياها . كان يعيش بين هواء يتنفسه وطعام يأكله فلا يستطيع ان يتصور كيف يعيش نحن ولا كيف يعيش هو لو خرج من رحم امه ولو ادرك انه سيخرج من هناك لمُدَّ خروجه موتاً

ونحن في معرفتنا الحياة لا نزال مثل اجنة في عقولنا ولم نكتشف من خفايا الكون الا القدر اليسير فلا عجب اذا تمدد علينا ان نتصور في العالم غير المنظور اموراً واحوالاً لم نرها ولم نشربها

قال ذلك وصفت هنيئة ثم قال متمهلاً كأنه يبطأ ارضاً مقدسة كان لامي تأثير كبير جداً في حياتي فقد كنت احبها احب كل ملامح وجهها وانعام صوتها ولحمت عينيها . ثم انتهت ذات يوم الى ان ما كنت اراه فيها هو ليس ذاتيتها وان صفاتها الحقيقية هي ما فيها من حب وعطف ورحمة وفكر وهذه الصفات ليست مما يرى بالعين . وهذا شأن كل منا فان صفاتنا الحقيقية ومقوماتنا الدائمة ليست مما يرى بالعين

وخلاصة القائل ان العالم لا يتخلو ان يكون واحداً من شيئين اما انه سخافة لا معنى لها ولا غرض منها نهايته الطراب والاضمحلال او ان له المأ خلقه وهو يقب اعماله ويدير اموره . وقد اوجد فيه ذاتيات خالدة . فاختر ما شئت من هذين الفرضين